

دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴿٤٥﴾ (النور: ٤٥) وقل أن يستعمل في الإنسان بل الغالب أن يستعمل في الحشرات ودواب الركوب، فإذا استعمل فيه كان ذلك في موضع الاحتقار، أي أن شر ما دب على الأرض في حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق ويعتبروا بالموعظة الحسنة، فهم يفقدون منفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته، البكم الذين لا يقولون الحق، ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا النطق، الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل والخير والشر، إذ هم لو عقلوا لطلبوه واهتدوا إلى ما فيه المنفعة والفائدة لهم كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

والخلاصة - أنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى، بأن خلقوا خداجا ناقصى هذه المشاعر، أو طرأت عليهم آفات أذهبت هذه القوى بل هم شر منهم، لأن هذه المشاعر خلقت لهم فأفسدوها، إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكيف.

الآية ٢٣ - ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾.

أي ولو علم الله فيهم استعدادا للإيمان والهداية بنور النبوة ولم يفسد قيس القطرة سوء القدرة وفساد التريية، لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم ممن ختم الله على قلوبهم وأحاطت بهم خطاياهم.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي ولو أسمعهم - وقد علم أنه لا خير فيهم - لتولوا عن القبول والإذعان وهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به كراهة وعنادا للداعي إليه فقد فقدوا الاستعداد لقبول الحق والخير فقدما تاما لا فقدوا عارضا موقوتا.

والخلاصة - إن للسمع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه:

١ - أن يتعمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادئ ذي بدء خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم.